

في غير أكثرا ، فقد بدت لنا حقيقة جليلة سافرة ، وكان لسان الحال فيها ، بحق ، أصدق من لسان المقال .

واللغة على عمومها أولى أن يقال فيها هذا الذي يقال عن الشاعر البليغ ؛ لأن اللغة هي قوام التعبير الناطق بين جميع المتكلمين بها ، فإن لم نتعرف منها حقائق أحوالهم فما هي بأداة وافية بوسائل التعريف .

فليس من الغلو في وصف اللغة المعبرة أن يقال إنك تضع معجمها بين يديك فكأنما قد وضعت أمامك قواعد تاريخها ومعالم بيعتها ، ولم تدع لمراجع التاريخ والجغرافية غير تفصيلات الأسماء والأيام .

واللغة العربية في طليعة اللغات المعبرة بين لغات العالم الشرقية أو الغربية ، فلا يعرف علماء اللغات لغة قوم تتراءى لنا صفاتهم وصفات أوطانهم من كلماتهم وألفاظهم كما تتراءى لنا أطوار المجتمع العربي من مادة ألفاظه ومفرداته في أسلوب الواقع وأسلوب الجاز .

ونبدأ بالمجتمع نفسه فنعلم أن المجتمع العربي في قوامه الأصيل إنما كان مجتمع رحلة ومرعى ، وأن الكلمات التي تدل على معنى الجماعة في لسان العرب قلما تخلو من الإشارة إلى الرحلة والرعاية .

فالأمة هي الجماعة التي تؤم مكانا واحداً أو تأتم بقيادة واحدة .

والشعب هو الجماعة التي تتخذ لها شعبة واحدة من الطريق ، والطائفة هي الجماعة التي تطوف معاً . والقبيلة هي الجماعة التي تسير إلى قبلة مشتركة ، والفصيلة هي الجماعة التي تفارق في مسلك